سلسلة رسائل الفضيلة

(٩)

منهج أهل السنة في توحيد الأمة

إعداد
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

دار الفضيلة

الطبعة الأولى
(1431هـ ـ 2010م)

رقم الإيداع: 2203 ـ 2010

ردمك: 2 ـ 25 ـ 866 ـ 9947 ـ 978

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

العنوان: حي باحة (03)، رقم (28) الليدو ـ المحمدية ـ الجزائر
هاتف وفاكس: 021519463

التوزيع: 08 53 62 (0661)

البريد الإلكتروني: darelfadhila@maktoob.com
موقعنا على الشبكة العنكبوتية: www.rayatalislah.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

نشهد أنَّه بلَّغ الرِّسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمَّة، وجاهَد في الله حقَّ جهاده حتَّى أتاه اليقين، فما ترك خيرًا إلَّا دلَّ الأمَّة عليه، ولا شرًّا إلَّا حذَّرها منه.

أمَّا بعد:

فإنَّ موضوع هذه الرِّسالة موضوعٌ عظيم، وكبيرٌ جدًّا، وكلُّ مسلم يتطلَّع غاية التَّطلُّع إلى تحقيق هذا المطلَب الجليل وهذا الهدف العظيم، وهو: توحيدُ كلمة المسلمين وجمعُ

صفِّهم، ولمُّ شعَثِهم وجمعُهم على كلمةٍ سواء، لا شكَّ أنَّ كلَّ مسلم يتطلَّع إلى تحقيق هذا الأمر والقيام به، ولكن للقيام بهذا المطلب نجد في السَّاحة حلولًا كثيرة، وآراءً متفرِّقة، واتِّجاهات متباينة في تحديد العلاج النَّاجح والسَّبيل الأقوم في جمع كلمة المسلمين ولمِّ صفِّهم وجمع شتاتِهم.

نعم؛ هناك حلول كثيرة، لكنَّ المسلم اللَّبيب الفَطِن يعيد كلَّ أمر، ـ ومنه هذا الأمر ـ إلى كتاب الله وإلى سُنَّةِ رسول الله ﷺ فهما الفَيصل، وهما المُعَوَّل، وإليهما المرجِع في كلِّ أمر، هذا الَّذي ينبغي أن يكون عليه المسلِم، يعيد مواطنَ النِّزاع وأمورَ الخلاف ومسائلَه إلى كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ ففيهما الشِّفاء، وفيهما الغَناء، ولا يجوز لأحدٍ كائنًا من كان أن يُدلي برأي، أو يتخرَّص تخرُّصًا، أو يأتي بظنٍّ أمام الحجج البيِّنة والدَّلائل النَّيِّرة من كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ.

أدلَّة التَّحذير من التَّفرُّق من الكتاب والسنة

إنَّ جمع كلمة المسلمين، وتوحيدَ صفِّهم، وتحذيرَهم من التَّفرُّق والاختلاف جاء بيانه مفصَّلًا غاية البيان وأحسنَه وأوضحَه في كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ فلا مَعْدِل لأهل السُّنَّة، أهل الحقِّ والاستقامة، عمَّا جاء في الكتاب الله والسُّنَّة، فهم يدورون معهما حيث دارا، نفيًا أو إثباتًا، كما قال الإمام الأوزاعيُّ رحمه الله: «ندور مع السُّنَّة حيث دارَت»(١).

هؤلاء هم أهل السُّنَّة حقًّا وأنصارها صدقًا، يدورون مع السُّنَّة حيث دارت، فما جاء في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ

---

(١) رواه ابن عدي في «الكامل» (١/ ٨٨)، ومن طريقه اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (رقم ٤٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٥/ ٢٠٠).

أقاموه وأتوا به على التَّمام والكمال، وما لم يكُن فيهما تركوه وحَذَّروا منه غاية الحَذر، هذا شأن أهل السُّنَّة والجماعة، أهل الحقِّ، الَّذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالنُّصرة والنَّجاة.

وعليه؛ فينبغي علينا إذا أردنا حلًّا لهذه المعضلة، وهي الفُرقة الَّتي تقع ووقعت بين المسلمين، ألَّا نتطلَّب حلولًا لها من غير كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ.

إنَّ وقوعَ الفُرقة والاختِلاف أمرٌ قدَّره الله ـ تبارك وتعالى ـ كونًا وقدرًا، وإن كان لم يَرْضه ـ تبارك وتعالى ـ شرعًا ودينًا، وقد أخبر به الصَّادق المصدوق عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّه سيقع قبل أن يقع، فقد قال في الحديث الصَّحيح الثَّابت: «**وَإِنَّ أُمَّتِي سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً**»[1] هذا إخبار من الصَّادق المصدوق ﷺ

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٩٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه؛ وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٠٤٢).

الَّذي لا ينطق عن الهوى، بأنَّ التَّفرُّق سيحصل، وأنَّ الله تعالى قدَّره وأراده الله كونًا وقدرًا، وهو سيقع ولا بدَّ، طبقًا لما أخبر به عليه الصَّلاة والسَّلام، وكذلك في حديث العرباض ابن سارية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا**»(١) والله ـ تبارك وتعالى ـ يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨﴾ [هود: ١١٨]، فهذا الاختلاف أمرٌ قدَّره الله ـ تبارك وتعالى ـ وأراده كونًا وقدرًا لكن لم يرضَه شرعًا ودينًا.

وعندما تقرأ القرآن الكريم كتاب الله ـ تبارك وتعالى ـ وسُنَّة رسوله ﷺ تجد فيهما النُّصوص الكثيرة والأدلَّة الوفيرة المحذِّرة من الشِّقاق والفُرقة والتَّدابر والتَّطاحن والتَّباغض، ونحو ذلك، فإذا كنَّا قد علمنا من خبر رسول الله ﷺ وممَّا

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٧)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٣)، وصحَّحه الألباني في «الصَّحيحة» (٩٣٧).

نراه في واقع المنتسبين إلى الإسلام، وهو حصول الفرقة، وحصول الاختلاف، وحصول الآراء والمذاهب المتعدِّدة، فإنَّ هذا يدعونا دعوةً أكيدةً وصادقةً إلى العودة الحميدة إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ففيها ـ كما تقدَّم ـ الشِّفاء والغَناء لمن وفَّقه الله ـ تبارك وتعالى ـ وبصَّره.

إنَّ التَّفرق في دين الله ومُفارقة دين الله ـ تبارك وتعالى ـ مذموم، ذمَّه الله تبارك وتعالى في كتابه، وذمَّه رسوله ﷺ في سنته، فيقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وفي قراءة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾[١] فالرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام منهم بَراء، وهم منه بُرآء، الَّذين فرَّقوا دينهم وفارقوه وخالفوه، وهم الَّذين اتَّبعوا

(١) هي قراءة حمزة الزيَّات والكسَّائي؛ انظر: «حجَّة القراءات» لابن زنجلة (ص:٢٧٨).

الفتن المُطغية والأهواء المُردية، ولهذا تجد في تفسير هذه الآية قولَ عدد من المفسِّرين أنَّ قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ المراد بهؤلاء أهل البدع والأهواء من هذه الأمَّة؛ وفي قولٍ آخر أنَّ المراد بهم اليهود والنَّصارى[1].

والحقُّ، كما ذكر عددٌ من أهل العلم، أنَّ الآية تشمل هذا وهذا، فاليهود والنَّصارى فرَّقوا دينهم، وفارقوا دينهم، بمعنى تركوه وجانبوه وابتعدوا عنه ولم يأخذوا به، وفرَّقوا دينهم بعد أن كان دينًا واحدًا يدينون الله ـ تبارك وتعالى ـ به ويعتقِدونه، اتَّخذوا أديانًا شتَّى ومذاهبَ مختلفة، فالآية تشمل هذا وهذا، ففيها النَّهي الأكيد والوعيد الشَّديد على من فرَّق دينَه أو فارق دينَه، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ ليس منهم في شيء، بل هو منهم بريء، وهم منه برآء.

---

(١) انظر هذه الأقوال وأدلَّتها في «تفسير الطَّبري» (١٠/ ٢٩ـ٣٣).

وصيَّة الله تعالى لأنبيائه بعدم التَّفرُّق:

يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣] هذه وصيَّة الله ـ تبارك وتعالى ـ وشريعته للأنبياء ولأولي العزم من الرُّسل؛ إقامة الدِّين وعدم التَّفرُّق فيه، وهذه الآية فيها أنجع حلٍّ، وأسلم حلٍّ لحسم الخلاف، ولمِّ الشَّعث.

إقامة الدِّين: وذلك بلزوم دينَهم الَّذي أمرهم الله ـ تبارك وتعالى ـ به والمحافظة عليه، لا حلَّ سوى هذا، ولا علاج سواه، ففي إقامة الدِّين حسم للتَّفرُّق الَّذي يقع فيه النَّاس، وهذا بالعودة إلى الدِّين كاملًا﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، فإذا أخذ

بعضُ النَّاس جانبًا من جوانب الدِّين وأهملوا جانبًا آخر، وقابلهم أُناس آخرون فأخذوا بجانبٍ من جوانب الدِّين وأهملوا جوانبَ أخرى، وقع بينهم التَّدابر، ووقعت بينهم الفُرقة، ووقَعت بينهم المحن والشِّقاق والاختِلاف، فإذًا حلُّ هذه المشكلة بإقامة الدِّين لله ـ تبارك وتعالى ـ، والإتيان به على التَّمام والكمال، والعودة الصَّادقة إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

الحلول النَّاجعة لمسألة تفرُّق الأمَّة:

يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الروم: ٣٠ـ٣٢] هذه الآية كما أنَّ فيها تحذيرًا شديدًا من التَّفرُّق، وأنَّه سبيل المشركين الَّذين فارقوا الدِّين واتَّخذوا أصنامًا آلهة، وعبدوا مع الله غيره، واتَّخذوا أهواءهم أربابًا من دون الله ـ تبارك وتعالى ـ، فيها حلول ناجعة ومفيدة جدًّا لمشكلة التَّفرُّق، بل لقد اشتملت على أعظم الحلول وأقْوَمها لهذه المشكلة.

ـ **الحلُّ الأوَّل**: قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ ومعنى إقامة الوجه للدِّين: أن يستسلم العبدُ تمام الاستسلام، وينقاد تمام الانقياد لأمر الله ـ تبارك وتعالى ـ وأمر رسولِه ﷺ، كما قال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢]، وكما قال: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾[الزُّمَر: ٥٤] فإذا أتى النَّاسُ بدين الله ـ تبارك تعالى ـ على التَّمام والكمال بدون إخلال، وبدون تقديمٍ للأهواء أو الشَّهوات، أو الآراء والعقول، أو غير ذلك، فإنَّهم أتوا بسبب هو مِن أعظم الأسباب الدَّاعية إلى اجتماع المسلمين ولمِّ كلمتهم.

ـ **الحلُّ الثَّاني**: والعلاج الآخر في هذه الآية الكريمة في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ فإنَّ في هذا إرشادًا إلى أهمِّيَّة العلم والبصيرة في دين الله ـ تبارك وتعالى ـ، فإنَّ العلم بالكتاب والسُّنَّة، والبصيرة بهما،

والتَّعويل عليهما من أهمِّ الأمور الَّتي يكون فيها حلٌّ لمشكلة التَّفرُّق الَّتي تقع بين المسلمين، أو بين المنتسبين إلى الإسلام.

فالرُّجوع إلى الكتاب والسُّنَّة، وردُّ مواطن النِّزاع والخلاف إلى الكتابِ والسُّنَّة، يكون أسلم حلٍّ وأحسَن علاج لهذه المشكلة؛ لأنَّه كما يقول ابن أبي العزِّ رَحِمَهُ اللهُ: «إذا لم يَرُدَّ النَّاس مواطن نِزاعهم ومسائل خلافهم إلى كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ لم يتبيَّن لهم الحقُّ، ولا يكونون على بصيرة في أمرهم إذا رَدُّوا إلى غير كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ»(١).

مسائل النِّزاع الَّتي تنازعتْ فيها الأمَّة في الأصول والفُروع، إذا لم تُرَد إلى الله والرَّسول ﷺ، لم يتبيَّن فيها الحقُّ، بل يصير فيها المتنازعون على غير بيِّنة من أمرِهم.

والمراد بالعلمِ العلمُ بالكتاب والسُّنَّة، ليس إلَّا، فالعلمُ بكتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ وفهمهما فهمًا صحيحًا قويمًا،

---

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٧٧٧).

على هدي وسَنَنِ السَّلف الصَّالح ـ رحمهم الله تعالى ـ فيه علاج، بل أكبر علاج لمسألة الخِلاف والفُرقة الَّتي تقع بين المسلمين، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء: ٥٩]، فلا بدَّ من العلم بالكتاب والسُّنَّة لحلِّ هذه المعضلة، فإذا وُجِدَ بين المسلمين وفي صفوفهم وفيمن ينتَسب إلى جماعتِهم، من لا يُقيم لعِلم الكتاب والسُّنَّة وزنًا، وينقُضُ كتابَ الله ويُناقِض النُّصوص الصَّريحة الواضحة البيِّنة الظَّاهرة السَّاطعة، ينقضها بعقلِه ورأيه، ويقدِّم الآراء الكثيرة من قِبَلِ نفسِه، ويجعلها مقدَّمةً على كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ فكيف يُلمُّ الشَّعث؟! وكيف تتَّحد الكلمة؟!

وكيف يجتمع الصَّفُّ؟! إذا وُجِدَ مَن يستهين بالسُّنَّة، ويقلِّل من شأنها، ويطعنُ فيها، ويحذِّرُ منها، ويَنسفُ الأحاديث الصَّحيحة الكثيرة نسفًا! ويقدِّم رأيَه وعقلَه عليها؟!

كيف يلتمُّ الشَّعث؟! إذا وُجد من يقدِّم الرُّؤى والمنامات على حديث رسول الله ﷺ؟! كقَول بعضِهم وهم المتصوِّفة أو غلاتهم يَعيبون أهلَ السُّنَّة أهلَ الحديث: «تقولون: حدَّثنا فلان عن فلانٍ، وأينَ فلانٌ؟ قد ماتَ، وأين فلانٌ؟ قد ماتَ، أمَّا نحن فنأخذُ دينَنا عن الحيِّ الَّذي لا يموت، يقول الواحدُ منَّا: حدَّثني قلبي عن ربِّي».

وكيف تجتَمع الكلمةُ إذا وُجد فيهم من يُقَدِّمُ عقلَه على الكتاب والسُّنَّة؟! ويقول محتجًّا لذلك: نحنُ إنَّما عرفنَا الكتابَ والسُّنَّة بعقولِنا، فإذا قدَّمنا النَّقلَ على العقلِ قدَّمنا الدَّليلَ على المدلول، فكيفَ نقدِّم النَّقلَ على العَقل؟!.

هكذا يقول هؤلاء مع أنَّ النَّقل الصَّحيحَ والعقلَ السَّليم لا يتعارضان، كما بيَّن ذلك شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله، في كتابه العظيم «درء تعارضِ العقل والنَّقل»؛ العقل السَّليم لا يُعارض النَّقل الصَّحيح، فإن حصل تعارضٌ بين عقلٍ ونقلٍ فلا يخلُو الحال إمَّا أنَّ العَقل غيرُ سليم، أو أنَّ

النَّقل غيرُ صحيح، فإذا كان العقل سليمًا والنَّقل صحيحًا فإنَّهما لا يتعارضَان أبداً.

ويقول بعض أهل العلم[1] في بيان شنَاعة فِعل هؤلاء: لازمُ قَول هؤلاء أن يقولَ الواحدُ منهُم بدلَ قوله: «أشهد أنَّ محمَّدًا رسول الله» يقول: «أشهد أنَّ عقلي رسولُ الله»؛ لأنَّ عقلَه هو المقدَّم، وهو الحُجَّة.

(١) كقوَّام السُّنَّة في «الحجَّة في بيان المحجَّة» (١/ ٣٤٤)، وأبي المظفَّر السَّمعاني في «الانتصار لأصحاب الحديث»، كما في «صون المنطق» للسُّيوطي (ص١٧٩).

ردود الأئمَّة على العقلانيِّين:

ولبيَان شناعة هذا القول وفساده يُقال لهؤلاء: عقل مَن الَّذي يُقَدَّم؟ وعقل مَن الَّذي عليه المعوَّل؟ فإذا قيل: عَقْلُ زيد مثلًا، فقد يكون عمرٌو أقوى منه جدلًا وأكثرَ منه منطقًا، وهكذا، إذا أُحيل النَّاس على عقول الرِّجال ضاع دينهم وتشتَّت؛ لأنَّ العقول متفاوتة والآراء مختلفةٌ.

ولهذا قال مطرِّف بن الشِّخِّير: «لو كانت الأهواءُ واحدًا لقال القائل: لعلَّ الحقَّ فيه، فلما تشعَّبَت وتفرَّقت عرف كلُّ ذي عقل أنَّ الحقَّ لا يتفرَّق»[1].

وروى إسحاق بن عيسى عن مالك رَحِمَهُ اللهُ أنَّه قال: «كان مالك بن أنس يَعيبُ الجدال في الدِّين ويقول: أكلَّما جاءنا

---

(١) انظر: «الاعتصام» (١/ ٦٢).

رجلٌ أجدَلُ من رجلٍ تركنا ما نَزل به جبريلُ عليه السَّلام على محمَّدٍ ﷺ لجدلِه»[1].

وفي خبر آخر عن مَعن بن عيسى قال: انصرفَ مالك ابنُ أنس يومًا منَ المسجد، وهُو متَّكئٌ على يدي فلحِقه رجلٌ يقال له: أبو الجُويرية كان يُتَّهم بالإرجاء، فقال: يا أبا عبد الله! اسمَع منِّي شيئا أكلِّمُك به وأُحاجُّك وأُخبِرُك بِرأيي، قال: فإنْ غلبْتَني؟ قال: إنْ غلبْتُك اتَّبعتَني، قال: فإنْ جاء رجلٌ آخر، فكلمَّنا فغلبَنا؟ قال: نتَّبِعه؛ قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يا عبد الله! بعثَ الله عزَّ وجلَّ محمَّدًا ﷺ بدينٍ واحدٍ، وأراك تَتنقَّل؛ قال عمر بن عبد العزيز: مَن جعَل دينَه غرضًا للخُصومات أكثَر التَّنقُّلَ»[2]؛ فمَن يجعل دينَه عُرْضَةً للخُصومات يكثر التَّنقُّل، يتخاصم مع هذا وذاك، ويتناظرُ مع هذا وذاك، والغَالب هو الَّذي يُتَّبَع، ولم يكن هذا مِن

(١) «شرح أصول الاعتقاد» (٢٩٣)، و«حلية الأولياء» (٦/ ٣٢٤).
(٢) انظر: «الإبانة» لابن بطَّة (٥٨٤)، و«ترتيب المدارك» (١/ ١٧٠).

شأن السَّلف، بل كانوا إذا جاءهُم الرَّجل للمُناظرة، وهم يَعرفون قصدَه منَ المناظرة، يقولون له: نحن على بَيِّنَةٍ من أمرنا، وأمَّا أنت فرجل شاكٌّ، فاذهب إلى رجل شاكٍّ مثلِك.

فالمسلمُ الَّذي يكون على بيِّنةٍ من أمره، وعنده الحُجج والبراهين والأدلَّة من كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ لا يتناظر مع أحدٍ ليكون الحقُّ مع الغالب والمنتَصِر في المناظرة؛ لأنَّه ليس بعد الحقِّ إلَّا الضَّلال، فإذا كانَ عنده الدَّليل والحُجَّة والبرهان من الكتاب والسُّنَّة لا يجوز له أن يتناظر مع أحدٍ على أساس أنَّ الحجَّة مع الغالب، فليَلْزم الكتابَ والسُّنَّة وليُقِم عليهما، ولا يُعَرِّض دينَه للفساد، أو لأهواء أهلِ البدع، إلَّا إذا كان من العلماء الرَّاسخين المتمكِّنين في دين الله، فإنَّ هؤلاء لهم مجالٌ آخر يُناظرون أهل البدع لإقامة الحُجَّة عليهم، ولبيان زَيغ عقائدِهم وفسادِها، وبطلانِ ما هم عليه.

فالعلمُ بالكتاب والسُّنَّة ومعرفتُهما، والتَّعويلُ عليهما من أعظم السُّبل الَّتي يكون بها حلٌّ لمسألة التَّفرُّق، وعندما

تلاحظ هذه الطَّوائفَ المختلفة تجد أنَّ كلًّا منهم يدَّعي أنَّه على الكتاب والسُّنَّة، وكما قال الشَّاعر:

وكلٌّ يدَّعي وصلًا بليلى * وليلى لا تُقرُّ لـهم بذاكا

كلُّهم يدَّعي أنَّه على الحقِّ، ولا أحدَ من أهل الأهواء يقول: نحن على باطل، ونحن على ضلال، بل كلُّهم يدَّعي أنَّه أهل حقٍّ وأهل صواب، ولا عِبرة بالدَّعاوى إذا لم يُقِم عليها أصحابُها البيِّنات، الدَّعوى لا تقدِّم ولا تؤخِّر إذا كانت ليس عليها برهانٌ، وهو العملُ والتَّطبيقُ والقيامُ بالكتاب والسُّنَّة، فليس من أهل الكتاب والسُّنَّة من يقدِّم عقلَه عليهما! والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [الحجرات: ١]، وفي معنى الآية يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي لا تعجَلُوا بقولٍ ولا فعلٍ قبل أن يقولَ رسولُ الله ﷺ أو يفعَل»[١].

---

(١) «إعلام الموقِّعين» (١/ ٥١).

ما أجمل هذه الكلمة! وهذا معنى النَّهي عن التَّقدُّم بين يدي الله ورسوله، يعني لا تعتَقد عقيدةً ولا تَدين بدين إلَّا إذا جاء في كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ، ولا تأتي بعبادةٍ وطاعة وقُربة إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ ما لم يقُم عليها الدَّليل من الكتاب والسُّنَّة، فـ«لا تعجَلوا بقول» يتعلَّق بالاعتقاد، و«ولا فِعل» يتعلَّق بالعبادة، فالَّذي يأتي باعتقاداتٍ لا دليلَ عليها من كتاب الله ولا سنَّة رسول الله ﷺ متقدِّمٌ بين يدَي الله ورسوله، والَّذي يأتي بعباداتٍ ليست في كتابِ الله ولا سنَّةِ رسول الله ﷺ متقدِّمٌ بين يدي الله ورسوله، يستَحسِن بعقلِه أشياء وعقائد وعبادات فينشُرها بين المسلمين، فإذا نشَرها بينهم فرَّق صفَّهم، ومزَّق كلمتَهم بهذا الهوى الَّذي نشرَه بينهم.

ولهذا يقول مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كلمةٍ عظيمةٍ في التَّحذير من هذا الصِّنف من النَّاس: «مَن قال: في الدِّين بدعةٌ حسَنةٌ؛ فقد زَعم أنَّ محمَّدًا ﷺ خانَ الرِّسالةَ؛ لأنَّ الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ

لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]، فما لم يكُن دينًا في زمن محمَّد ﷺ وأصحابه فليس اليوم دينًا، ولن يَصلُحَ آخرُ هذه الأمَّة إلَّا بما صلح به أوَّلها»(١)؛ أوَّل الأمَّة إنَّما صَلحوا بلزوم الكتاب والسُّنَّة واقتفاء أثرِهما والسَّير على نهجِهما.

ـ **الحلُّ الثَّالث**: ثمَّ قال تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ [الروم: ٣١] وهذا حلٌّ ثالثٌ لمشكلة الفُرقة الَّتي تقع بين النَّاس، وهو الإنابة إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ، وأن يُدْعَى جميع المتفرِّقين والمُفارقين والمختَلفين إلى الإنابة إلى الله، يُقال لهم: ارجِعوا إلى الله، عُودوا إلى الله، عُودوا إلى دين الله، اعتصِمُوا بكتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ؛ يقولُ محمَّد بن شهاب الزُّهري رحمه الله: «كان مَن مضى مِن عُلمائنا يقولُ: الاعتصام بالسُّنَّة نجاة»(٢).

---

(١) رواه ابن حزم بإسناده إلى ابن الماجشون عن مالك رحمه الله (الباب ٣٥)، وانظر: «الاعتصام» للشَّاطبي (١/ ٢٩-٣١٩).

(٢) رواه الدَّارمي (٩٦)، واللَّالكائي (١٥)، والهروي في «ذمِّ الكلام» (٤٨٥)، والدِّينوري في «المجالسة» (٣٦٣).

فَيُدْعَى هؤلاء إلى الإنابة، وإلى الرُّجوع إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ويُقال لهم: دَعُوا مخالفةَ الكتاب والسُّنَّة، وعودوا إليهما؛ فهذا حلٌّ من أعظم الحلول لمسألة الفُرقة الَّتي تقعُ بين المسلمين.

ـ **الحلُّ الرَّابع**: ثمَّ ذكر علاجًا رابعًا، وهو تقوى الله ـ تعالى ـ ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ [الروم: ٣١] وهي رأس الأمر وأساسُه، ومِن أحسن ما عُرِّفَتْ به التَّقوى كما ذَكر ذلك ابن تيميَّة وابن القيِّم والذَّهبيُّ وغيرهم من أهل العلم، تعريفَ طَلَق ابن حَبيب رحمه الله حيث قال: «تقوَى الله تعالى: أن تعمَل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثوابَ الله، وأن تتركَ معصية الله، على نور من الله، تخاف عقابَ الله»(١).

هذه تقوى الله ـ تبارك وتعالى ـ، أن تجعل بينَك وبين ما تخشاه من سَخط الله وعقابه وقايةً تَقيكَ، وذلك لا يكون إلَّا

(١) رواه ابن أبي شَيبة في «المصنَّف» (٣٠٩٩٣)، وفي «الإيمان» (٩٩)، وابن المبارك في «الزُّهد» (١٣٤٣)، وهنَّاد في «الزُّهد» (٥٢٢).

بفعل الأوامر وتَرك النَّواهي، فيُقال للمتفرِّقين والمختَلفين: اتَّقوا الله! راقبوه في السِّرِّ والعَلن، راقبوه مراقبةَ مَن يَعلم أنَّ ربَّه يسمعُه ويَراه، فهذا من الحلول المهمَّة لمشكلة الفُرقة، أن يتَّقي المتفرِّقون ربَّهم ـ تبارك وتعالى ـ.

ـ **الحلُّ الخامس**: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الروم: ٣١] هذا سببٌ خامس، إقامةُ الصَّلاة، فهيَ من أعظم الأمور الَّتي تجمع القلوبَ وتؤلِّف الكلمةَ، ولهذا أُمِرَ الرِّجال أن يؤدُّوها جماعةً في جماعة المسلمين، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة: ٤٣]، وكان لا يتخلَّف عن الصَّلاة في جماعة المسلمين في عهد الصَّحابة رضي الله عنهم إلَّا منافقٌ معلوم النِّفاق، قال عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه ـ كما في «صحيح مسلم»[1] ـ: «لَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْ الصَّلَاةِ إِلَّا مُنَافِقٌ قَدْ عُلِمَ نِفَاقُهُ أَوْ مَرِيضٌ»، فالصَّلاة في بيوت الله الَّتي أَذِنَ الله

(١) برقم (١٠٤٦).

أن تُرفَع ويُذكَر فيها اسمُه، من أعظم الأمور الَّتي تجمع كلمةَ المسلمين، ولهذا إذا كان العبدُ محافظًا على الصَّلاة، قائمًا بها، يجدُ نفسَه تألفُ المصلِّين والمحافظين على الصَّلاة، وكلَّما ازداد الإنسانُ محافظةً على الصَّلاة، وعلى النَّوافل، وعلى الطَّاعات، وعلى إقامةِ ذكر الله تعالى في بيوتِ الله، ازدادت محبَّةُ المسلمين له، وازدادت أُلفتُهم له، فالصَّلاة في جماعة، والمحافظةُ عليها من أعظم الأمور الَّتي فيها حَلٌّ للفُرقة الَّتي تكونُ بين المسلمين؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولابدَّ من إقامتِها جماعةً، كما دلَّ على ذلك كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ يقول عليه الصَّلاة والسَّلام كما في الحديث الصَّحيح: «**وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِالصَّلَاةِ فَتُقَامَ ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، ثُمَّ أَنْطَلِق مَعِي بِرِجَالٍ مَعَهُمْ حُزَمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بِالنَّارِ**»[1].

---

(١) رواه البخاري (٦٠٨،٦٦٨٣)، ومسلم (١٠٤١) واللَّفظ له.

فأداءُ الصَّلاة جماعةً من أعظم الأمور المُعينة على جَمع المسلمين، وإذا أقاموها جماعةً تذاكروا وذَكَّرَ بعضُهم بعضًا، وفي صلاتِهِم صلاةَ الجمعة تذكيرٌ للنَّاس ودعوةٌ لهم إلى العودة إلى كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ.

ـ **الحلُّ السَّادس**: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي لا تكونوا مِن هؤلاء، مِن المشركين.

والمشركون: عبَدَة الأوثان الَّذين يعبدون مع الله غيره، فمعنى هذا أنَّ من العِلاجات المهمَّة والحلول العظيمة النَّافعة الَّتي لا بدَّ منها لحلِّ الفُرقة الَّتي تقع بين المنتَسبين إلى الإسلام، أن يُخْلِصَ الجميعُ دينَهم لله ـ تبارك وتعالى ـ، وأن يجتَمعوا على توحيد الله ـ تبارك وتعالى ـ، وأن يجتَمعوا جميعًا على «**لا إله إلَّا الله**» عِلمًا وعملًا وتطبيقاً، وبهذا يكون اتِّفاقهم، أمَّا إذا وُجِدَ في المنتَسِبين إلى الإسلام مَنْ لا يُحْسِنُ فَهْمَ «**لا إله إلَّا الله**» أو يَفْهَم منها ما لا تدلُّ عليه، أو يستدلُّ

منها بما يناقضها، فكيف تتَّحد الكلمة وأصلُ الأصول وأساسُ الأسُس مختَلَفٌ فيه؟!

«**لا إله إلَّا الله**» هي أصلُ الأصول، وأعظمُ الحسنات المقرِّبة إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ، لكن لها ضوابطُها، ولها شروطُها في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ فالاجتماع على «**لا إله إلَّا الله**» ليس اجتماعًا على التَّلفُّظ بها فحسب، وإنَّما هو اجتماعٌ على العلم بها، والعملُ على الإتيان بأركانها وضوابطها وشروطها الَّتي دلَّ عليها الكتاب والسُّنَّة؛ ولهذا لَّما قيل لوَهب بن منبِّه رَحِمَهُ اللهُ: أليسَ «**لا إله إلَّا الله**» مفتاح الجنَّة؟ قال: «بلى، لكن ما مِن مِفتاح إلَّا وله أسنانٌ، فإن جئتَ بمفتاح له أسنانٌ فُتِحَ لك، وإلَّا لم يفتَح»[1].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز معلَّقا، ورواه مسندا الأصبهاني في «الحجَّة في بيان المحجَّة» (٩١)، وأبو نعيم في «صفة الجنَّة» (١٩٠)، والبيهقي في «الأسماء والصِّفات» (١/٢٠٨)، وقال ابن حجر في «المطالب العالية» (٢٩٧٢): هذا إسنادٌ حسن موقوف.

ويقول الحسنُ البصريُّ، لَمَّا قيل له: أليس من قال «**لا إله إلَّا الله**» دخل الجنَّة؟ قال: «بلى، لكن من أدَّى حقَّها وفرضَها»[1]، يشير إلى القيام بأركانها وشروطها الَّتي دلَّ عليها كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

ولَمَّا دَفَنَ الفرزدق زوجتَه قال له الحسن: ماذا أعددتَّ لهذا المقام؟ قال: أعددتُّ له «**لا إله إلَّا الله**» منذُ سبعين سنةً؛ فقال له الحسن: «إنَّ لـ«**لا إله إلَّا الله**» شروطًا، فإيَّاك وقذفَ المحصنَات»[2].

فالاجتماع على «**لا إله إلَّا الله**» وعلى كلمة التَّوحيد ليس اجتماعًا على اللَّفظ فقَط، وإنَّما اجتماعٌ على العِلم والعَمل بهذه الكلمة، وأداءِ ضوابطها وشروطِها الَّتي دلَّ عليها كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ.

---

(١) رواه الأصبهاني في «الحجَّة» (٩١).

(٢) رواه ابن أبي الدُّنيا في «القبور» (١٠٩) بنحوه، وعزاه السُّيوطي في «شرح الصُّدور» لابن عساكر، وذكره ابن رجب في «كلمة الإخلاص» (١٤).

ولقد وُجِدَ في المتَسبين إلى الإسلام ـ وهم كثيرون ـ من يفسِّر «**لا إله إلَّا الله**»، بغير تفسيرِها، وبغير معناها، بل لا يعرفُ معناها الحقيقيَّ الَّذي دلَّت عليه، والعلمُ بمعناها أهمُّ ضابط للاجتماع عليها، كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الزُّخرُف: ٨٦]، قال المفسِّرون: إلَّا مَنْ شَهِدَ بـ«**لا إله إلَّا الله**» وهم يعلمون معناها، وكما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩] وكما قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[1]، فلا بدَّ من العلم بمعناها، ولا يكفي أن يُقال: كلُّنا نقول «**لا إله إلَّا الله**»، بل لا بدَّ من القيام بـ«**لا إله إلَّا الله**» عِلمًا وعملًا، وفهمًا وتطبيقًا، وأداءً لها على ما جاء في كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ.

(١) رواه مسلم (٢٦).

وشرحُ هذه الكلمة وبيانُها جاء في الكتاب وفي السُّنَّة فلا حاجةَ بنا بعد بيانِ الله وبيانِ رسوله ﷺ إلى بيانِ مُبَيِّنٍ كائنًا مَن كان، يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦]، ويقول تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ويقول ـ تبارك وتعالى ـ حكايةً عن إبراهيم: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزُّخرف: ٢٧]، ويقول تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البيِّنة: ٥].

هذا هو معنى «**لا إله إلَّا الله**»، ويقول تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٥] استمسك بـ«**لا إله إلَّا الله**»، وقال: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾ [لقمان: ٢٢]؛ استمسك بـ«**لا إله إلَّا الله**»: الإيمان بالله والكفر بالطَّاغوت، عبادة الله وعدم الإشراك به، هذا هُو

معنى «**لا إله إلَّا الله**».

فإذا وُجِدَ في المسلمين أو في المنتَسبين إلى الإسلام مَنْ يقول: إنَّ عبادةَ القبور أو دعاءَ القبور مسألةُ ذَوقٍ، حسب تذوُّق الإنسان، يعني إذا كان يتذَّوق هذا الأمرَ ويستَطِيبُه لا بأس به، فكيف يكون الاجتماعُ على «**لا إله إلَّا الله**»؟!

فلا بدَّ مِن فَهم هذه الكلمة العظيمة، لو قرأتَ كتُبَ العقائد الَّتي ينسبها بعضُ أصحابها إلى السُّنَّة، تجدُ فيها تفسيراتٍ عجيبةً وغريبةً في بيان معنى هذه الكلمة، مثل قولهم في معنى «**لا إله إلَّا الله**»: «لا قادرَ على الاختراع إلَّا الله»، أو «لا غنيَّ بنفسه عمَّن سواه إلَّا الله»، أو «لا ربَّ إلَّا الله»، فيفسِّر الألوهيَّة بالرُّبوبيَّة، أو قول طائفة من الصُّوفيَّة يعيشون في هذا العَصر يقولون: معناها هو: «إخراجُ اليقين الفَاسد من ذات الإنسان، وإدخالُ اليقين الصَّحيح في ذات الله؛ لأنَّه الخالق الرَّازق المنعم المدبِّر»، بهذا يفسِّرون هذه الكلمة!!

فكيف تجتَمع الكلمةُ وتتوحَّد الأمَّةُ؟! لابدَّ من فهم

هذه الكلمة العظيمة، لا بدَّ من إخلاص الدِّين لله ـ تبارك وتعالى ـ بالإتيان بهذه الكلمة على التَّمام والكمال، والإتيان بشروطها وضوابطها الَّتي جاءت في كتاب الله وسُنَّة رسوله عليه الصَّلاة والسَّلام.

لقد اعتنى علماءُ أهل السُّنَّة ـ رحمهم الله وأجزلَ لهم المثوبةَ ـ عنايةً بالغةً بجَمع كلمةِ المسلمين، ولمِّ صفِّهم، وجمع شعثِهم بدعوتِهم الصَّادقة إلى دين الله ـ تبارك وتعالى ـ، وألَّفوا الكُتبَ الكثيرةَ والمؤلَّفاتِ العديدة في بيانِ العقيدة الصَّحيحة، وردِّ ما خالفها، تجدُ منها مؤلَّفات كثيرةٍ جاءت في بَسْط العقيدة وشرحِها وبيانِها وتأصيلِها، وذِكْرِ أدلَّتها من كتاب الله وسُنَّة رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام، وتجدُ أيضًا مؤلَّفات كثيرة لهم في الرَّدِّ على ما خالفَ هذه العقيدةَ وناقضَها، كلُّ هذا دعوةً إلى جمع الكلمة ولمِّ الصَّفِّ، بينما في فَهم بعضِ النَّاس أنَّ مَن يردُّ على أهل الأهواء والزَّيغ ويبيِّن

فسادَ عقائدهم وبطلانَ ما هم عليه، يعدُّونه مفرِّقًا لكلمة المسلمين مشتِّتًا لشملِهم، ولهذا يقعِّدون قواعدَ ويؤصِّلون أصولًا من خلالها يريدون جمعَ المسلمين كيفما اتَّفق؛ بعقائد مختلفةٍ وآراء متباينةٍ ومذاهب متعدِّدةٍ، وهيهاتَ أن يكون الاجتماع!!

لا يكونُ الاجتماعُ حقيقةً إلَّا بالاجتماع على كتابِ الله وسُنَّة رسوله ﷺ ولهذا تلاحظُون أنَّ الجماعة قرينةٌ للسُّنَّة، والفُرقة قرينةٌ للبدعة، يقولون: أهل السُّنَّة والجماعة، وأهل البدعة والفُرقة؛ لأنَّ السُّنَّة تجمَع، والبدعة تفرِّق، فالسُّنَّة تجمع المسلمين على هديٍ واحد، وعلى منهجٍ واحد، وعلى وتيرةٍ واحدة، كما يقول أبو المظفَّر السَّمعاني رحمه الله: «وممَّا يدلُّ على أنَّ أهلَ الحديث هم على الحقِّ، أنَّك لو طالعتَ جميعَ كُتبهم المصنَّفة من أوَّلهم إلى آخرهم ، قديمِهم وحديثِهم مع اختلاف بلدانِهم وزمانِهم، وتباعُد ما بينهم في الدِّيار، وسُكون كلِّ واحد منهم قطرًا من الأقطار، وجدتَهُم في بيان

الاعتقاد على وتيرةٍ واحدةٍ، ونمَطٍ واحدٍ يجرونَ فيه على طريقة لا يَحيدون عنها، ولا يَميلون فيها، قولهم في ذلك واحدٌ ونقلُهم واحدٌ، لا تَرى بينهم اختلافًا ولا تفرُّقًا في شيء ما وإنْ قلَّ، بل لو جمعتَ جميعَ ما جرى على ألسنَتِهم، ونقلوه عن سلفِهم، وجدتَه كأنَّه جاء من قلبٍ واحدٍ، وجرى على لسانٍ واحدٍ، وهل على الحقِّ دليلٌ أبينَ مِن هذا؟ قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]»(١).

أمَّا الَّذين مصدرهم العَقل، أو الرُّؤى، أو المنامات، أو الحكايات، أو الرَّأي، أو الذَّوق، أو ما إلى ذلك، تجدهم في غايةِ التَّباين، وغاية الاختِلاف، ولهذا لبعض أهل العلم كلمةٌ عظيمةٌ في شرح قول النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام الَّذي

(١) انظر: «الحجَّة في بيان المحجَّة» (٢/ ٢٢٤ـ٢٢٥).

في «صحيح مسلم»[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تناجشوا ولا تَبَاغَضُوا وَلَا تدابروا، وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَانًا**».

قال في قوله ﷺ: «**لَا تَبَاغَضُوا**»: فيه إشارةٌ إلى النَّهي عن البدع؛ لأنَّها سببٌ للفُرقة والتَّباغض، فالَّذي يُحدث بدعةً، أو ينشُر محدَثًا بين المُسلمين، فإنَّه يكون بذلك فرَّق صفَّهم، وليس الَّذي يردُّ عليه وينقضُ باطلَه ويردُّ على بدعتِه، هو الَّذي فرَّق صفَّ المسلمين، ولكن تجد مَنْ يُلقي اللَّائمة كلَّ اللَّائمة في تفريق الصَّفِّ على أهل السُّنَّة الَّذين يَدْعون النَّاس إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ويحذِّرونهم منَ البِدع والأهواءِ، فيقُولون: هؤلاء يفرِّقون الصَّفَّ؛ والحقُّ أنَّ الَّذي يفرِّق الصَّفَّ هو الَّذي جاء بالبدعة، ودسَّها بين المسلمين، ونشرها بينهُم.

---

(١) برقم (٦٥٤١).

فبإخلاص الدِّين لله ـ تبارك وتعالى ـ، وإقامةِ كلمة التَّوحيد «**لا إله إلَّا الله**» حسبَ ضوابِطها الَّتي دلَّ عليها كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ يكون الاجتماع، لا يكون الاجتماع أبدًا بإحداثِ آراءٍ أو مناهجَ أو محدثاتٍ ليست في الكتاب والسُّنَّة.

وقد أشرتُ قبل قليل أنَّه وُجد مَنْ يُقَعِّدُ قواعدَ ويُؤَصِّلُ أصولًا يحاول بها جَمعَ النَّاس وجَمعَ كلمتِهم، ولكن لن يتحقَّق ذلك؛ لأنَّ الاجتماعَ لا يكون إلَّا على السُّنَّة، فالسُّنَّة قرينها الاجتماع، والبدعة قرينُها الفُرقة، وهذه سنَّة جارية، فتوحيد صفِّ المسلمين وجمع كلمتهم لا يكون إلَّا بالعودة بهم عودةً صادقةً إلى كتاب ربِّهم وسنَّة رسولهم ﷺ.

وهذه كلمة لشيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله ذكر فيها تقعيداً جامعًا، وقاعدةً متينةً، وأصلًا نافعًا يتعلَّق بجمع المسلمين، أورد تحته الأدلَّة والبراهين والحُجج من كتاب الله ـ تبارك وتعالى ـ لبيان كيفيَّة اجتماع المسلمين، يقول رحمه الله بعد

كلام طويل نافع في هذه المسألة في المجلَّد الأوَّل من «الفتاوى» في أوَّله[1]:

«فظهر أنَّ سببَ الاجتماع والأُلفة: جمع الدِّين والعمل به كلِّه، وهو عبادة الله وحده لا شريكَ له، كما أمر به باطنًا وظاهرًا.

وسبب الفُرقة: ترك حظٍّ ممَّا أُمِرَ العبدُ به والبغي بينهم.

ونتيجة الجماعة: رحمةُ الله، ورضوانُه، وصلواتُه، وسعادةُ الدُّنيا والآخرة، وبياضُ الوجوه.

ونتيجة الفُرقة: عذابُ الله، ولعنتُه، وسواد الوجوه، وبراءة الرَّسول ﷺ منهم». انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ١٧).

وأقول في ختام هذه الرِّسالة الَّتي أرجو الله أن ينفع بها: إنَّ جمعَ كلمة المسلمين ولمَّ شعَثِهم وإصلاحَ ذات بينهم من أهمِّ الأمور الَّتي ينبغي أن يعتنيَ بها المسلم، ولا سيَّما علماء المسلمين والدُّعاة إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ يقول ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، ويقول ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾ [الحجرات: ١٠] وعندما تنظر إلى واقع عددٍ من النَّاس، الَّذين لهم عناية بالدَّعوة إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ، تجد أنَّهم يُعنَون عنايةً كبيرةً ويهتمُّون اهتمامًا بالغًا بإصلاح ذات البَيْن بين النَّاس، في أمور المواريث، وأمور

النِّكاح، وأمور البيوع، وأمور أخرى عديدة مهمَّة وعظيمة ونافعة، لكنَّهم في المقابل يفرِّطون في أمرٍ من أهمِّ ما يكون، وهو إصلاح ذات البَيْن في باب الاعتقاد، وجَمع الكلمةِ على العقيدة الصَّحيحة الصَّافية المأخوذة من كتاب الله ـ تبارك وتعالى ـ وسُنَّة رسوله ﷺ.

إنَّ الواجبَ على كلِّ مسلم بصَّره الله ـ تبارك وتعالى ـ في دين الله أن يُعنَى بهذا الأمر العظيم؛ إصلاح ذات البَيْن، بجمع كلمة النَّاس على العقيدة الصَّحيحة، على دينِ الله ـ تبارك وتعالى ـ الَّذي جاء في الكتاب والسُّنَّة فإنَّه لا نجاة للنَّاس ولا عصمةَ لهم ولا سعادةَ لهم في الدُّنيا والآخرة إلَّا بذلك، ولهذا يقول مالك بن أنس رَحِمَهُ الله: «السُّنَّة سفينة نوح، مَن ركبَها نجا، ومَن تخلَّف عنها غَرق»[1]؛ فالنَّجاة والسَّلامة إنَّما تكون بالرُّجوع إلى الكتاب والسُّنَّة، والاعتِصام بهما، والعودة إلى العقيدة الصَّحيحة المأخوذة منهما، واتِّباع سبيل السَّلف الصَّالح منَ الصَّحابة

(١) «ذمُّ الكلام وأهله» للهروي (٨٧٢).

ﷺ ومَن سار على نَهجِهم، واقتَفى آثارهم إلى يوم الدِّين.

نسأل اللهَ أن يَجعلنا منهُم، وأن يصلح ذات بيننا وأن يؤلِّف بين قلوبنا، وأن يهدينا سُبل السَّلام وأن يخرجنا من الظُّلُمات إلى النُّور وأن يجنّبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وأن يبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذريَّاتنا وأن يتوب علينا إنّه هو التّواب الرّحيم.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك وأنعَم على عبد الله ورسوله نبيِّنا محمَّد[1].

---

(١) أصل هذه الرِّسالة محاضرةٌ أُلقيت في دولة الكويت في المخيَّم الرَّبيعي الَّذي أقامته جمعية إحياء التُّراث الإسلامي في عام ١٤١٥هـ وقد فُرِّغت من الشَّريط وأَجريْتُ عليها تعديلات يسيرة، وفضَّلتُ أن تبقى بأسلوبها الإلقائي كما كانت في المحاضرة، والله وحده الموفِّق.

الفِهرس